أ. الشيخ عبدالعظيم المهتدي البحراني
باحث ومفكر اسلامي □ البحرين

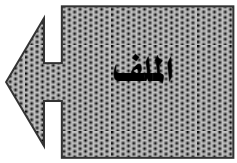

الإنطلاقة في القضاء على موانع التقريب والوحدة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وله الفضل والمنّة، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وآله الأئمّة، وعلى أصحابه دعاة الخير في الأمّة ، وعلى التابعين لهم إلى يوم القيامة.

عنوان البحث (الإنطلاقة) في القضاء على موانع التقريب والوحدة..

ولقد سطّرتُ بحثي على محورين:

الأول .. أهمّ موانع التقريب والوحدة.

الثاني .. أهمّ سُبُل القضاء عليها.

ومن الله أرجو السَّداد إنه خيرُ مُعينٍ وأحسنُ هادٍ.

المحور الأول: أهمّ موانع التقريب والوحدة

ألف) عدم المعرفة:

حينما لا يعرف الفردُ المسلم الوجوبَ الشرعي لمشروعِ التقريب وضرورات الوحدة، ويجهل الأهمّيةَ الحضارية لحضور أمّته على الصعيد الدولي مرفوعةَ الرأس والرّاية، وحينما لا يشعر بخطورة التحدّيات المحيطة به وبقضاياه الإسلامية والمصيرية..

فإنه لا يتحرّك نحو العمل بمقتضيات المشروع التقريبي ومقوّمات الوحدة. بل قد يتورّط في هدم ذلك من حيث يشعر أو لا يشعر.. لأن {الناس أعداء ما جهلوا} -كما في روايةٍ عن الإمام علي (ع).[١]

فالجهل وعدم المعرفة هو المانع الأوّل لتحقيق المجتمع الوحدويّ الناضج بمبادئ الحُبّ والعقلانيّة ونور العلم والحضارة.

باء) غياب التربية الصالحة:

لا يكفي العلمُ وحدُه لإزالة موانع التقريب والوحدة ما لم تعضدُه نزاهةُ التزكية وباطنُ الخشية من الله الملك الحق المبين.

ولقد زَهَدَ الإنسانُ منذ القِدَم في جهادِ هواه وترويضِ نفسه وميوله الشهوانية المفتوحة بلا ضوابط رادعة. ولم تكن رسالة الأنبياء إلا ليكبحوا فيه هذه الحيوانية ويصعدوا به إلى مقام الإنسانية ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

فالّذي يزوي عن نفسه التهذيب المعنوي يهوي إلى مستنقع الكراهيّة ويمارس العدوانيّة ولم ينفعْه علمُه، بل والعلم في هذه الحالة يسهّل طريقَه في الصدّ عن التقريب والوحدة.

جيم) سيطرة الحكام المنحرفين:

وهذه من الأسباب الرئيسية التي أخّرت الأمّة الإسلامية وجعلتْها هزيلةً أمام القوى الأجنبيّة والثقافات الغازية. ومن المعلوم أن الحاكم المنحرف ومن خلال عملائه المنتشرين بين الناس يسعى لتقسيمهم إلى فئات متناحرة حتى تُصرَف طاقاتهم على بعضهم وهو يسلم من ضغوطهم ويبقى في سلطته أمداً طويلاً ويضمنها في سلالته أيضاً.. وذلك ما عُرِف بسياسة (فرِّق تَسُد).

فما من حاكم منحرف قد بُلِيَتْ به الأمّة في تاريخها إلا زرع فيها بذور التفرقة وأورث التقسيم والحروب والضغائن إرضاءً لشهواته وجشعه ومآربه الدونيّة. فكان المسلمون ضحيّة سياساته المنحرفة عن جادّة الحق وقيم الوحدة ومبادئ التسامح

والأخوّة.

دال) علماء السّوء:

يلعب هؤلاء بفتاواهم والأفكار المصلحيّة التي يتبنّونها لعبةً أساسية في تشتيت الجهود وبعثرة الطاقات وعدم السماح للمشاريع الوحدويّة أن تسلك في الأمّة بسلام وقوّة ونجاح.

عن رسول الله (ص): {**أوحى الله إلى بعض أنبيائه: قُل للّذين يتفقّهون لغير الدين، ويتعلّمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا لغير الآخرة، يَلْبَسُون للناس مُسوك الكباش وقلوبُهم كقلوب الذئاب، ألسنتُهم أحلى من العسل، وأعمالهم أمَرّ من الصَّبَر، إيّاي يخادعون ولأتيحَنّ لكُم فتنةً تَذَرُ الحكيم حيراناً**}.[٣]

هاء) العصبيّة والنزعة الآحاديّة:

هي غريزة يمتلكها كلّ فرد، كباقي الغرائز التي تميل بصاحبها على جهة السقوط ما لم تعتدل بكوابح الورع ونُبْل القيم، فمَن لم يخرج من سيطرة هذه الغريزة بحُبّ الخير للآخرين فسوف يتحوّل إلى سكّينة في خاصرة الفعّاليات الإصلاحية أو يُصبِح كالرُّمح في صَدْر المساعي التقريبية بين المسلمين. وهذه النزعة الصانعة للإستبداد الفردي والغرور والتعالي ومحورية الأنا لا غير.. هي التي تقف وراء الديكتاتوريات الصغيرة والكبيرة في مختلف الميادين وتولّد الكتل الإستبدادية المتواجهة في المجتمعات، فتأتي النتيجة كما قال الله سبحانه: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٤].

وتستبطن النزعة الآحادية في المستبدّ روحَ العصبيّة التي أدانها الإسلام وصنّفها على المعسكر الجاهلي.

واو) حُبّ الدنيا والمصالح الماليّة:

حُبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، مقولة صادقة بتأييد النبي الأكرم (ص) والتجربة المشهودة على الأرض خير شاهد. ويلعب المالُ في خطيئات الدنيا لعبته الخطيرة لمّا تحتكره الأيادي الخاصّة وتوظّفه لمصالحها الذاتية، ثم مِن أجل الحفاظ عليها والتوسُّع

فيها يخضع أصحابُها لكلِّ مخطَّط شيطاني ومشروع تمزيقي، فقد يدخلون في تحالفات مع الدول الكبرى أو الصغرى أو مَن يجدون لديه المصلحة المالية والتنمية التجارية لثرواتهم، فتمنعهم هذه المصالح مِن قبول أيّ مشروعٍ تقريبيٍّ في الأمّة يرونها هادماً لتلك المصالح.

قال رسول الله (ص): «**إنّ الدّينار والدّرهم أهلكا مَن كان قبلكم، وهما مُهلِكاكم**».[٥]

فبالمال يضمن الإنسان الدنيوي شهواته ويغترّ بها على سراب الفتن وغفلة الصراعات وتجاذبات القيل والقال للمزيد من الغطرسة ثم المزيد من الإنغماس فيها حتى الثمالة.

زاء) الأطماع الخارجية:

وهي الحاضرة في عصرنا أكثر مما مضى، فالإستعمار الأجنبي إنما يستمر في نهب خيرات البلدان المسلمة بعد ما يسخِّر كلَّ العوامل السابقة الذكر في سبيل المزيد من التمزيق والإستضعاف للقوى لفرض سياسة الإحتياج له والإرتباط به. فالإستعمار يذهب كثيراً من الأحيان إلى خَلْق أزمة ولو على مستوى حربٍ مدمّرة بتحريك الأسباب القومية (عرب وعجم) أو المذهبية (شيعة وسنّة) أو السياسية (حزب وحزب) أو الجغرافية (رسم حدود) أو الإقتصادية (حقول النفط وصراع الشركات العملاقة). ويرتكز هدفُه النهائيُّ على مصالحه الطويلة الأمد في تلك البلدان.

حاء) شللُ الإرادات:

وتتراكم الضَّرَباتُ على إرادات المُصلِحين بهدف إحداث شرخٍ في عزائمهم وخَورٍ وخواءٍ في قراراتهم وشللٍ في قواهُم، حتى لا يجدوا أمامهم سبيلاً للتقدّم وطريقاً للإنقاذ جرّاء الغبار الذي يرتفع في وجوههم بنفس الأسباب المذكورة.

فما أكثر الإرادات قد تلاشتْ والهمم قد اندثرتْ والجهود قد تهدّمتْ نتيجة الجهل والأنانيّة والعصبيّة والمؤامرات الخلفيّة.. إلا القلّة التي انتزعتْ العظمة في تاريخ البشرية.. بصمودها في وجه الرياح المعاكسة.

ولكي لا تتكرّر المأساةُ تلو المأساة في وأد الكفاءات، كان لابدّ من صياغة عقولٍ إسلامية بما يتوافق مع المصالح الكبرى للإسلام في مشروعه العالمي لإنقاذ الأمّة والبشريّة جمعاء، وهذا الأمر البنيوي بهذا الحجم الكبير لا يكون ميسوراً ضمن معادلات الواقع المتشابك الراهن.. إلا أنّ وضْعَ القطار على السكّة الصحيحة متى ما تيسّر فإنه بداية الوصول إلى تلك الغايات الكريمة بعون الله. وهو ما يجب أنْ يسعى إليه المصلحون في الأمّة وندعو إلى تحريكه وتفعيله يوماً قبل غد...

المحور الثاني: أهمّ سُبُل القضاء على الموانع

ألف) نشر المعرفة وتعميم العلم

لقد أعطى الإسلام لطلب العلم غاية الأهمّية ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[٦]، وكفى أنّ الآية الأولى التي أوحى الله بها على رسوله الأمين محمد (ص) قد أمرتْه بالقراءة.. كونها مفتاح العلم والمعرفة وهي مبدأ كلّ حركة إيجابية. وأردفتْها بالقلم حيث الوسيلة لتقييد العلم وتطويره ونشره وتخليده. ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٧].

والإسلام لم يحصر نوعيّةَ العلم في مجال الدّين فقط بل أطلق مجالاته في رحاب المجالات كلّها ما عدا علوم الإفساد والتدمير.

قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٨].

فللذين آمنوا قيمة وللذين أوتوا العلم قيمة أخرى. وهذا ما أكّده رسول الله (ص) حينما قال: {**طلب العلم فريضة على كلّ مسلمٍ ومسلمة**}.[٩] إذ لم يحدِّد العلم في ميدانٍ دون ميدان. وممّا يدعم هذه الرؤية الإسلامية الواسعة قوله (ص): {**أطلبوا العلم ولو بالصّين**}.[١٠] فهل كانت العلوم التي عُرفتْ بها الصين آنذاك علوماً دينيّة أم كانت بشريّة إنسانيّة عامّة.

فالعلم في الإسلام داعيةُ خيرٍ ونضجٍ وثباتٍ للشخصيّة الموزونة.. وعكْسُه الجهل

حيث يجعل صاحبَه مُختلَّ الموازين ومُذَبْذَبَ المواقف وجسراً إلى الشرّ والرذيلة. لذلك حاربه الإسلام وحذّر المسلمين منه، حتى قال النبيُّ الأكرم (ص) في صفة الجاهل: ﴿**أنْ يَظْلِمَ مَن خالَطَه، ويتعدّى على مَن هو دونَه، ويتطاول على مَن هو فوقه، كلامُه بغيرِ تدبُّر...**﴾.[١١]

ومن هنا رَبَطَ الإمام عليّ (ع) الإختلاف بالجهل قائلاً: ﴿**لو سكت الجاهل ما اختلف الناس**﴾.[١٢]

فينبغي توسيع دائرة الفعل الثقافي وترشيد المسلمين إلى قيمة الوعي والمطالعة وتوفير كافّة مستلزمات القراءة والتعلّم.. بدءاً من البصائر القرآنية وعلوم النبي وأهل البيت، مروراً بما ورد عن كبار الصحابة المنتجبين والعلماء الصالحين، وانتهاءاً بكل أبواب العلوم الإنسانية وما تحتاجه البشرية في تقويم مسيرتها الحضارية.

باء) التربية الصالحة:

التربية ليست علماً ومعلومات وتعليماً ونظريات فحسب، بل هي فنُّ تفعيل العلم وتطبيق المعلومات وإيصال التعليم إلى مستوى الإنتاج والأثر المتحرّك، ولا يتحرّك الخير والمحبّة والتآلف والسّلم الأهلي كمشروعٍ على أرض الواقع ما لم تُزرَع في النفس البشريّة حوافز إيمانيّة ودوافع إسناديّة من الداخل.. وهذا ما تُناط به التربية المعنويّة وتتكفّله التزكية الروحية وأهمّية الخلوة الفكرية حتى يتحلّق صاحبُها إلى آفاق الكون وفي أعماق الأنفس فيكتشف كم للتعاون على البِرّ والتقوى من ضرورةٍ وسِعَةِ مصاديق في الحياة.

والإنسان ينمو نحو العظمة بنموّه النفسي والروحي والمعنوي، إذ على قدر التزكية والنزاهة وملكة التقوى وقوّة النفس سيتّخذ قراراته الإيجابية بشجاعة ومثابرة ويتجاوز العقبات أمام التقريب والوحدة ويقوم بتضحية الجزء في سبيل مصلحة الكلّ حسب مدارجِ الأهمّ ثم المهمّ وقواعد التوافق العام.

ولا يتأتّى إتخاذ مثل هذه القرارات الصعبة والكبيرة إلا بخلفية روحيّة يكون

مركزها النفس المطمئنّة.

وإلى هذه البصيرة تشير الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.[١٣]

تماماً كالبذرة الصالحة، حيث من جوفها النقيّ تنطلق ثمارُها الطيّبة فتأتي أُكُلها كل حين بإذن ربّها. وعلى العكس لو كانت البذرة فاسدة من جوفها فلن تكون الثمرة غير العناء والفشل.

ولعل من أهم زوايا التربية في سياق التقريب بين الناس تلك المتصلة منها بالعواطف الإنسانية ومركزها النفس المشبَّعة بقيم الحُبّ للخير على وجه الإطلاق حتى يُحصَر البغض في موارد قليلة وعلى ضبطٍ أخلاقي موزون، فلا يُوجَّه ضدّ كل مَن طرأ خلافٌ معه في الرأي أو العقيدة المبنيّة على دليل.

إنّ هذه النفس هي التي توجّه صاحبها نحو الإعتدال في الموقف من الآخر.. ولا تتصادم بدوافع مَرَضيّة كما هي السائدة في أكثر الخلافات بين المسلمين.

وبذلك يجب تثبيت هذه الناحية التربوية (أعني تنمية العواطف) أساساً لبناء الشخصية الوحدوية ذات المرونة الصادقة.. إذ لن يقف صاحبها حائلاً دون الوحدة بين المؤمنين ومانعاً للتقريب بين المسلمين، بل لن يقف ضدّ أي مشروع تعارفيٍّ تعاونيٍّ مع الإنسان الآخر لتعميق أواصر المحبّة الإنسانية ومدّ جسور لقاء الحضارات بين الشعوب.

يقول الخطيب الشهير العلامة الشيخ محمد تقي فلسفي:

إن النكات الدقيقة التي أوردها الإسلام في موضوع السعادة الانسانية في القرون السالفة وعلّمها أتباعه، تستجلب أنظار العلماء المعاصرين في العصر الحديث فنراهم يفطنون إلى تلك الحقائق في كتبهم ومؤلفاتهم: «للأمل والإيمان والإرادة القوية أثر كبير على الجسم، وهو يشبه أثر البخار على القاطرة. إن النشاطات الجسدية والروحية تتكامل بدافع الحب فتكسب الشخصية قوة ورصانة وكمالا. وعلى العكس فإن الرذائل تحط من الشخصية وتسحقها. إن الكسل والتردد في الرأي مثلا من أهم

العوامل على جمود الفكر، وكذلك العجب بالنفس والغرور والحسد فإنها من عوامل التفرقة والتباعد بين الناس، وهي جميعا تمنع النفس البشرية من التكامل».[١٤]

جيم) الحكام الصالحون:

وباعتبار تأثيرات السلطة الحاكمة على وَضْعِ العباد وأوضاع البلاد قويّةٌ ومباشرة وأثرها على الصلاح أو الفساد أمرٌ محسوم بلا نقاش، ترى الإسلام قد أوْلى إهتماماً كبيراً بمسألة الحكم والحاكم والحكومة.

فما هو نوع الحكم.. هل حكم الله أم حكم الجاهلية؟

ومَن يكون الحاكم.. هل بصفات خليفة الله أم بصفات الجاهليّين؟

وكيف يجب أن تكون الحكومة.. هل بسياساتٍ مستقلّة أم بتبعيّةٍ وذيليّة؟

الإجابة على هذه الأسئلة هي التي تحدِّد مسارات التقريب والوحدة أو مغارات التفريق والفتنة.

ويستمدّ بحث الولاية والإمامة والخلافة أهمّيته عندنا من أهمّية الإجابة على هذه الأسئلة الثلاث.. وبالتالي نعتقد أنّ الإمامة الإبراهيميّة تُمهِّد للوحدة الإسلامية وتُمسك بزمام الأمّة على طريق التعاون والتناصح والتعاضد لتحقيق العبادة التوحيدية لله الواحد الأحد الفرد الصّمد.. ولذا قالت سيّدةُ نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت النبي محمد (ص) في خطبتها المعروفة: {**جعل الله... ولايتنا نظاماً للملّة وإمامتَنا أماناً مِن الفرقة**}.[١٥]

وتؤكّد الوثائق التاريخية أنّ الأمّة الإسلامية قد تفرّقتْ من بعد رسول الله (ص) إلى فرقتيْن ثم ثلاث وأربع وخمس.. ثم إلى ما نعيشه من فِرَقٍ ومذاهب تجاوزت تفريقاتها (٧٣) فرقة.. بل وصار كل جمعٍ مُشَرْذَمٍ في يومنا هو بنفسه مذهباً يناطح غيره! وليس ذلك إلا لخلل حدث في القيادة بعد النبيّ (ص) كما هو الثابت، والثابت أيضاً أن المسلمين لم ينجحوا في التعامل الصحيح مع هذا الخلل لا على المستوى النظري والبحث العلمي المحايد ولا على المستوى العملي لاتخاذ مواقف إصلاحية تقاربيّة تحدّ من سلبيات الإنقسام وفشل النزاعات.

وفي دراسة موضوعية تعتمد منهجيّة الحياد والإنصاف نستنتج النتيجة التالية:

إنّ الحاكم.. بمقدار صلاحه وحكمته وعدله يبني صرح الوحدة ويشيّد بنيان الأخوّة. وهو بمقدار فساده وحُمقه وظلمه يهدم ويفرّق ويزرع بذور العداوة والبغضاء بين الناس..

فكيف لو كان الحاكم واحداً من أهل بيت النبوّة الذين طهّرهم الله من رجس الفساد والفحشاء والمجون والظلم والإنحراف؟!

نعتقد لو كانوا يحكمون الأمّة لما كانت الفرق الإنشطاريّة تتوسّع دائرتها، والأمزجة التكفيرية تتوارث نفسها، والفلسفات البشريّة المستوردة تغزونا بسمومها، ذلك لأن حكم الأئمّة (ع) من ولد النبي (ص) هو حكم جدّهم الذي هو حكم الله.. والله لا يريد لعباده إلا التعاون والتعايش والتسامح، وذلك ما جاء النبي محمد (ص) لتأسيسه في أمّته والأمم كلّها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[١٦].

ومن أجل التداوم في هذه الرسالة نَصَبَ رسول الله (ص) أئمّةً يهدون بأمر ربّهم من بعده لمّا صبروا على طاعة الله وكانوا بآيات الله يوقنون.

قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾.[١٧]

وهل يكون أولوا الأمر الذين تأمرنا هذه الآية الشريفة بطاعتهم إلا مَن يكون على نهج الله ونسج الرسول في جميع ما أراداهما للأمّة؟!

ومن هنا لم يكن يتدخّل الله بإرادته مباشرةً لتطهير أهل البيت (ع) من الرجس إلا ليجعلهم أئمّةً يهدون بأمره فأوجب طاعتهم في طول طاعته وطاعة رسوله. وبالتالي ينحصر طريق التقريب والوحدة في طاعتهم لأنها طاعة الرسول وطاعة الله. وهل المسلمون يريدون شيئاً غير طاعة الله والرسول وغير سعادتهم في الدنيا والآخرة؟!

دال) العلماء الربّانيّون

ليس مِن شكّ أنّ العالمَ الربّاني يقوم بدورٍ أساسيّ في توحيدِ الكلمة بناءً على كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).. ذلك هو رسالته الأولى والأخيرة مادام يجلس في موقع الوراثة لدور الأنبياء وخاتمهم سيّد المرسلين محمّد (ص).

والربّانيّةُ أدقُّ صفة للعالِم الذي يربّي الناسَ بأخلاقِ الربّ الغفور.. الرزّاق لكلِّ العباد. فكونه عالماً يسيرُ على نهج الأنبياء والرسل.. يُحمِّله مسئوليةَ التقريب بين وجهات النظر لتسبيلِ الوحدة بين عباد الله بمعنى تسهيل التعاون على البرّ والتقوى بينهم وتعطيل التعاون على الإثم والعدوان.

والعالِمُ الربّاني هو الذي يُلزم نفسَه بمواقف الإصلاح بين الآخرين ويُجنّبها عن الصِّدام بهم، ويرى ممارسة هذه الأخلاقية الإجتماعية واجباً شرعيّاً وليس خياراً إستحبابيّاً يمكنه الإستغناء عنه متى ما شاء وأراد.

وبناءً عليه إذا كان الإصلاح والتقريب صدقةٌ يُحبّها الله تعالى لعموم الأمّة، فإنها لخصوص العلماء الربّانيّين تعلو إلى درجةِ المسئولية التي لا تتجزّأ عن بقيّة مسئولياتهم الشرعية.

فالعالِمُ قد وَضَعَ نفسَه في موقعٍ لا مفرّ له من إيفاء دور التقريب والسعي في سبيل الوحدة وكسب القوّة للأمّة على شتّى الميادين.. فكلّ فكرة وكلّ كلمة وكلّ خطوة يكون مسؤولاً عنها يوم القيامة إنْ لم تتّجه نحو بناء الوحدة القائمة على أُسس المحبّة والأخوّة والتسامح والتلاحم لحمل أمانة الإسلام العظيمة كما حملها النبيّ الأكرم وأهل بيته الطاهرون والصحابة الأوفياء والتابعون لهم على مرّ العصور.

قال أمير المؤمنين (ع)لكميل بن زياد: {**يا كميل احفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم ربّاني، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق...**}.[١٨]

فكلّ الذين يتعاطون الخلافات الهدّامة هم الذين يتجنّدون لحرب الآخرين لمجرّد تباين في الذّوق أو تفاوت في الرأي أو تضارب في الإجتهاد الحُرّ. وأما الإنقاذ فلا يكون إلا بعلماء ربّانيين ومتعلّمين على سبيل النجاة.

هاء) الروح الجماعيّة

هي البديلة عن النزعة الآحاديّة التي نبذها الإسلام لينمّي في الإنسان روح العمل الجماعي لأنه دين أمّة وليس دين فرد أوجماعةٍ وأُسرة..

إنّ نظرةً فاحصة على المنظومة الفكريّة والأحكام الشرعية للإسلام تُثبت القيمة العالية للمشاريع الجماعية.. فالخطاب القرآني خطاب الجمع.. والدعوة إلى الحق موجّهة إلى الجماعة.. وحتى العبادات تختزن الأهداف الجمعيّة، فمن صلاة الجماعة وفضلها على صلاة الفرادى.. إلى مناسك الحجّ وفعاليات هذا المؤتمر الجماهيري السنويّ العام.. إلى أجر الآداب الإجتماعية وثواب التزاور والتهادي والتعاون بين الناس.. إلى بركات السير في الأرض والسفر للتعارف بين الشعوب والقبائل. كلّ ذلك تمهيداً للأنشطة الجماعية المشتركة.. مضافاً إلى تأكيد الإسلام على نشر السلام بين الأنام مما يستلزم بناء الذات على أسس القبول بالآخر والتعاطي معه بروحٍ جماعية وحُبّ الخير للإنسان إلى درجة الإيثار.

وهذا يعني حرمة الإستبداد في الإسلام وقبح الأنانيّة وفرض الرأي الواحد وسيّئة الطّرد للآخر.. وهذه خلفيّة كلّ الخلافات التي تستعصي على الحلّ.

ويقدّم الإسلام حلّه لمعضلة الديكتاتورية عبر مبدأ الشورى والتشاور. وهو يعلّم الإنسان منذ صغره على حبّ الآخرين والتكامل معهم والأخذ منهم وعدم التكبّر عليهم وأن يحترم مَن يعلّمونه وأن يسأل ويتحاور ويستشير أكثر مِن واحدٍ قبل اتخاذه القرار في شيء.. ويعلّمه على مبادئ العفو والتسامح والإيثار والحلم والعطاء.. فلا يبقى مع هذه الصفات النبيلة أيُّ دافع للنزوح إلى قهر الآخرين وقمع آرائهم والقسوة عليهم وحرمانهم حقوقهم الإنسانية.

ولا نعلم أقوى معلِّمٍ للحرّية ونبذ الروح الفرديّة غير الله الواحد الأحد الفرد الصّمد، وهو رغم قدرته على مناوئيه يمنحهم حقّهم في النقد والإعتراض والمناقشة، وقصّته مع أوّل خصمٍ هو إبليس قد ذكرها بكل أمانة في محكم آياته القرآنية، وأعطاه ما طلبه منه عزّوجل رغم تصريح إبليس بأن طلبه للمهلة إنما ليمنع نجاح مشروع التسبيح والعبادة والخلافة في الأرض...

وليس في الكون رجلٌ أكمل عقلاً من رسول الله محمد (ص).. وهو الذي يخاطبه الله تعالى بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.[١٩]

ولكنّ الله يأمره بالمشورة من أصحابه الأجلاّء ليتعلّم المسلمون ضرورتها في علاقاتهم ببعضهم ويرتقوا حتى الإلتزام بها إلى مستوى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٢٠] والآية وإنْ كانت للمؤمنين إلا أنّ الذين أقلّ منهم درجة – أي المسلمين – لابدّ لهم من الشورى بحكم الإشتراك والترابط في الخير وما يصلح الشأن العام.

وهكذا فقد أدان النبي (ص) صفة العُجب بالنفس والإستبداد بالرأي، كما في قوله: {**لا وحدة أوحش مِن العُجْب، ولا مظاهرة أوثق مِن المشاورة**}.[٢١]

وهكذا ورد عن الإمام علي (ع) قوله: {**مَن استبدّ برأيه هَلَك ومَن شاوَرَ الرّجالَ شارَكَها في عقولِها**}.[٢٢]

وهكذا تلتقي دعوة الإسلام إلى نبذ الآحادية وفرض الرأي الفردي وما تُسمّى الاستبداد.. ودعوتُه إلى ممارسة الشورى والمشورة.. تلتقي في محاربته للعصبيّة التي أهلكتْ الكثير من البشر وأتلفتْ العديد من الدّول، فكانت تستحق الإدانة والتحذير الشديد من رسول الله (ص) في قوله: {**مَن تعصّب أو تُعُصِّبَ له فقد خَلَعَ رِبْقَ الايمان مِن عُنُقِه**}.

وقال أيضاً: {**مَن كان في قلبِه حبّة مِن خردل مِن عصبية بَعَثَه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية**}.

وعن أبي عبد الله الصادق (ع) قال:{**مَن تعصّب عَصّبَه الله بعِصابةٍ مِن نار**}.

وعن علي ابن الحسين زين العابدين(ع) قال: {**لم يدخل الجنة حميّة غيرَ حميّة حمزة بن عبد المطلب – وذلك حين أسلم – غضباً للنبي (صلى الله عليه وآله)**}.

وعن الزهري قال: سُئِلَ علي بن الحسين (عليهما السلام) عن العصبيّة، فقال: {**العصبية التي يأثم عليها صاحبُها أن يرى الرجلُ شرارَ قومه خيراً من خيار قوم آخرين وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يُعين قومه على الظلم**}.[٢٣]

واو) **الإنفاق سبيل البِرّ والأخوّة:**

لن تنالَ أمّةٌ بِراً في حياتها ما لم ينفق أغنياؤها وأثرياؤها مما رزقهم الله في سبيل

وحدتها وقوّتها ورفعتها ودوام عزّها وبقاء مجدها وكرامة أجيالها وتماسكها على خطّ الأخوّة.. حيث الأبناء يتأثرون بمواقف آبائهم بطريقةٍ وبأخرى.. إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ.

ولا أحد ينكر أن المال يُشكِّل قوّةً أساسيّة في تشييد المشاريع الكبرى على طريق التقريب والوحدة لأجزاء المجتمع وتقدُّم الأمم، وعلى نفس القياس يُشكِّل المال خطراً على التقريب والوحدة وسبباً لتخلّف الأمم.. والإتّجاهان كلاهما تصنعهما ثقافة البرّ وإرادة الأخوّة أو ثقافة الفسق وإرادة العداوة. وفي ذلك فإنّ نوعيّة تلقّي الفكر والثقافة تقف وراء نوعيّة الإرادة وتوجيهها طوليّاً. فمَن كان – من أصحاب المال – صاحب فكرٍ وحدويٍّ وكانت ثقافتُه شموليّة كانت إرادتُه في صَرْفَ مالِه تتّجه نحو المشاريع الوحدويّة.. مثل بناء مؤسسات عامّة المنفعة، ودعم مؤتمرات التسامح والأخوّة، ونشر كتبٍ تدعو لمعالجة آفات الوحدة، ومثل رعاية البرامج الفضائية المحبِّبة للقلوب، والوقوف المالي مع الفضائيات والشخصيات الناشطة على خطّ الإسلام الموحِّد.

ويكون العكس بالعكس إذا ما كان المال متكدّساً بأيدي أصحاب الفكر التكفيري وذوي الإرادات العدوانية.. الذين ينشرون كتباً تحريضية في الطائفية البغيضة لتتحوّل إلى سيّارات مفخَّخة وأحزمة ناسفة تقتل الأبرياء وتهدم العتبات المقدّسة والمساجد حتى توجب الردّ من الطرف المتضرِّر، أو مَن ينفقون أموالهم لتثقيف المجتمع على سلوكيات الفسق والفجور والميوعة والإنحلال الخُلُقي ليَحُولوا دون توظيف الطاقات الشابّة نحو ميادين البناء الاستراتيجي لقضايا الأمّة، وهو غالب ما عليه مِن أصحاب المال والعاملين على سراب الشهوات والملذّات والمخدَّرات.

إنّ هؤلاء قد نسوا أنّ المالَ الذي بأيديهم هو مالُ الله وأنّ عُمْرَهم الذي يرتعون فيه إنّما نهايته بيد الله.. فإنْ أنفقوه في سبيله اشتروا به سمعةً طيّبةً في الدنيا وجنّةً عرْضَها السماوات والأرض في الآخرة. وإنْ أنفقوه في سبيل الهوى اشتروا به عاراً في الدنيا وناراً في الآخرة ولاحَقَهُم وِزْرُ عَمَلِهم فترة برزخهم إلى يوم القيامة.

ونستعرض رأي المفسِّر الكبير فخر الرازي للآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢٤] وفي أقواله كما توحيه الآية يوجد الكثير من العلاقة التكاملية بين عناصر الإنفاق ومشروع التقريب والوحدة بتجنيب النفس عن الغيظ والغضب في الموقف من الآخر (الناس) وما لقيمة الإحسان من أداء بنّاء في سبيل هذا الهدف الرفيع.

حيث يقول: (اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الجنة معدّة للمتقين ذكر صفات المتقين حتى يتمكّن الانسان من اكتساب الجنة بواسطة اكتساب تلك الصفات).

فالصفة الأولى: قوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وفيه وجوه:

الأول:أن المعنى أنهم في حال الرخاء واليُسر والقدرة والعُسر لا يتركون الانفاق، وبالجملة فالسرّاء هو الغنى ، والضرّاء هو الفقر . يحكى عن بعض السلف أنه ربما تصدّق ببصلة، وعن عائشة رضي الله عنها أنها تصدّقتْ بحبة عنب.

والثاني: أن المعنى أنهم سواء كانوا في سرور أو في حزن أو في عسر أو في يُسر فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس.

الثالث: المعنى أن ذلك الاحسان والانفاق سواء سرّهم بأن كان على وفق طبعهم، أو ساءهم بأن كان على خلاف طبعهم فإنهم لا يتركونه، وإنما افتتح الله بذكر الانفاق لأنه طاعة شاقّة، ولأنه كان في ذلك الوقت أشرف الطاعات لأجل الحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: كظم غيظه إذا سكت عليه ولم يُظهره لا بقولٍ ولا بفعل. قال المبرّد: تأويله أنه كَتَمَ على امتلائه منه، يقال: كظمتُ السقاء إذا ملأتَه وسددتَ عليه، ويقال: فلان لا يكظم على جرّته إذا كان لا يحتمل شيئاً، وكل ما سددت من مجرى ماء أو باب أو طريق فهو كظم، والذي يُسَدّ به يُقال له الكظامة والسدادة، ويقال للقناة التي تجري في بطن الأرض كظامة، لامتلائها بالماء كامتلاء القرب المكظومة، ويقال: أخذ فلان بكظم فلان إذا أخذ بمجرى نفسه، لأنه موضع الامتلاء بالنفس، وكظم البعير

كظوماً إذا أمسك على ما في جوفه ولم يجتر. ومعنى قوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ الذين يكفّون غيظهم عن الامضاء يردّون غيظهم في أجوافهم، وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم، وهو كقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[٢٥].

المسألة الثانية: قال النبي (ص): "مَن كَظَمَ غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبَه أمناً وإيماناً". وقال عليه السلام لأصحابه: "تصدّقوا". فتصدّقوا بالذهب والفضة والطعام، وأتاه الرجل بقشور التمر فتصدّق به، وجاءه آخر فقال والله ما عندي ما أتصدّق به، ولكن أتصدّق بعرضي فلا أعاقب أحداً بما يقوله في حديثه، فوفد إلى رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم من قوم ذلك الرجل وفد، فقال عليه السلام: "لقد تصدّق منكم رجلٌ بصدقة ولقد قبلها الله منه، تصدّق بعرضه". وقال عليه السلام: "مَن كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه زوّجه الله من الحور العين حيث يشاء". وقال عليه السلام: "ما من جرعتين أحبّ إلى الله من جرعة موجعة يجرّعها صاحبُها بصبر وحُسْن عزاء ومن جرعة غيظ كَظَمَها". وقال عليه السلام: "ليس الشديد بالصرعة لكنّه الذي يملك نفسه عند الغضب".

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال القفال (رحمه الله): يحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى ما ذم من فعل المشركين في أكل الربا، فنُهي المؤمنون عن ذلك ونُدبوا إلى العفو عن المُعسرين. قال تعالى: عقيب قصة الربا والتداين ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢٦]. ويحتمل أن يكون كما قال في الدية: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾[٢٧] إلى قوله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٢٨]. ويحتمل أن يكون هذا بسبب غضب رسول الله (ص) حين مثّلوا بحمزة وقال: "لأمثّلنّ بهم" فنُدب إلى كظم هذا الغيظ والصبر عليه والكفّ عن فعل ما ذكر أنه يفعله من المثلة، فكان تركه فعل ذلك عفواً، قال تعالى في هذه القصة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[٢٩] قال (ص): "لا يكون العبد ذا فضل حتى يصل من قطَعَه ويعفو عمّن ظَلَمَه ويُعطي من حَرَمَه". وروي عن عيسى بن مريم صلوات الله عليه: "ليس الإحسان أن تُحسن إلى من أحسن إليك ذلك مكافأة، إنما الإحسان أن تُحسن إلى من أساء إليك".

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فاعلم أنه يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، وأن تكون للعهد فيكون إشارة إلى هؤلاء. واعلم أن الاحسان إلى الغير إماأن يكون بإيصال النفع إليه أو بدفع الضرر عنه. أما إيصال النفع إليه فهو المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء﴾ ويدخل فيه انفاق العلم، وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالّين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات. وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة بإساءة أخرى، وهو المراد بكظم الغيظ، وإما في الآخرة وهو أن يبرئ ذمته عن التبعات والمطالبات في الآخرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالّة على جميع جهات الاحسان إلى الغير، ولما كانت هذه الأمور الثلاثة مشتركة في كونها إحساناً إلى الغير ذكر ثوابها فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإنّ محبة الله للعبد أعمّ درجات الثواب)٣٠

زاء) مقاومة الأطماع الأجنبية:

وهي ليست بالأمر الهيِّن ولكنّها أمرٌ ممكن. وذلك بالعودة إلى شروط الإمكان من حيث البناء الفكري والتنوير الثقافي وتكثيف الأعمالية العلمية والدراساتية ونشر مراكز الأبحاث والمعرفة وتأسيس المكتبات العامّة للمطالعة. ومن حيث الدروس التربوية المركّزة أخلاقياً لتقويم السلوك الفردي والأسري والإجتماعي. ومن حيث التعاقد في المشتركات وتكريس مفاهيم العطاء والإيثار والحُبّ للغير كما الحُبّ للنفس. ومن حيث توظيف الإمكانات الحكومية واهتمام العلماء بتحقيق الأهداف السّامية للأمّة الإسلامية.

عند هذه الشروط تستعيد الوحدةُ روحَها ومصداقيّتها حتى يستسلم الإستعمار ويقرّ للأمّة حقوقها فيعلن الخروج من الباب على أن لا يعود من الشبّاك!

فليست الأطماع الإقتصادية ولا الإملاءات السياسية ولا التواجد العسكري للدول الإستعمارية الكبرى في بلادنا اليوم وبشكلها السافر إلا لأننا نفتقد شروط الإستقلال والحرّية ومعاني الأخوّة وما تحتاجه الوحدة من مستلزمات حقيقية خارجة عن نطاق المجاملات والشعارات.

ولا نوافق الرأي الذي يذهب إلى أنّ الإستعمار سبب تفرّقنا.. بل القابليّة الداخلية هي اللاقطة لكل ما تكرّس فينا الذلّ وتُضحك علينا الأجانب.

فلن تتحرَّر الأمّة من أطماع السيطرة الأجنبية ما لم تحرِّر نفسها من أهواء تُتّبَع وأحكام تُبتَدَع وأطماع داخلية تُطاع.

وهذا ما عناه الرسول الأعظم (ص) نبيّ هذه الأمّة من دعوته لها إلى الجهاد الأكبر، وهو الفريضة التي تجلب الفوز لفريضة الجهاد الأصغر في وجه المستعمرين. ونتساءل في ظلّ غياب الجهاد الأكبر (وهو جهاد النفس الأمّارة بالسّوء) هل يثمر الجهاد الأصغر أم نحن على محض السّراب والدّوران حول الذّات نجدف ونستنزف؟!

واقع الأمّة يجيب على هذا السؤال الخطير وبكل ما لهذا الواقع من ثغرات كارثيّة...

ولكنّنا لو اتّجهنا بالوعي الإنساني لداخلنا المتأزّم لاستطعنا الخروج من سيطرة الأجنبي بالدخول إلى الغرب (أمريكا وأوروبا) من منافذ التنوّع وثقافاتها المتناقضة وقمنا باستثارة ضمائر شعوبها والإستفادة من مبادئها في الديمقراطية عملاً بمبدأ (ألزِموهم بما ألزَموا به أنفسهم).

ذلك لأن الغرب ليس بقرارٍ واحد وكلمته ليست مطلقة نهائية، فيكون الواقع المتطلّع لغدٍ أفضل وفق أسس العقلانية قادراً على فرْض نفسه ولو في آخر المطاف، وهنا يرتفع غطاء اللّعبة الدولية لتصبح الأمّة الإسلامية رقماً جديداً على الساحة العالمية بكلّ ما لدى الأمّة من مكوّنات فكرية وسياسية واقتصادية وعسكرية و...

يجب أن تؤمن فاعليات الأمّة (مرجعياتها الدينية ودولها ومؤسساتها وكفاءاتها) بإمكانيّة التغيير لصالح القوى الخيّرة التي تتّبع الحكمة وتسلك المنهج التحرّري السلمي وتتقدّم بثقة النفس. فليس في هذا الإيمان مكان للقبول بالأمر الواقع والإستسلام للتفكّك القاتل والركون إلى اليأس من النجاة.. ففي تاريخ الأمم والحضارات تُقرأ شواهد ناصعة لسنن الله في التغيير والتحوّل وشروطها الواضحة. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣١] ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[٣٢].

(والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)

الهوامش:

١ - نهج البلاغة - الشيخ محمد عبده - طباعة دار المعرفة - الجزء ٤ / كلمة ١٧٢
٢ - الجمعة / ٢
٣ - عدّة الداعي، ص٧٠
٤ - المؤمنون / ٥٣
٥ - الكافي - ج ٢ - ص ٣١٦
٦ - الزمر / ٩
٧ - العلق / ١ - ٥
٨ - المجادلة / ١١
٩ - فقه السنة: الشيخ سيد سابق، ج٣، ص٤٥
١٠ - وسائل الشيعة: ج ١٨ ص ١٤ حديث رقم ٢٦
١١ - تحف العقول؛ ص ٢٩
١٢ - ميزان الحكمة؛ ج٣، ص ١٠٢٤، عن بحار الأنوار؛ ج ٧٨، ص ٨١ ، ٧٥
١٣ - الرعد / ١١
١٤ - الطفل بين الوراثة والتربية؛ الشيخ محمد تقي فلسفي، ج ١، ص ١٩ - ٢٠
١٥ - الأسرار الفاطمية - الشيخ محمد فاضل المسعودي؛ ص ٤٧٦
١٦ - الأنبياء / ١٠٧
١٧ - النساء / ٥٩
١٨ - الخصال؛ الشيخ الصدوق، ص ١٨٦
١٩ - آل عمران / ١٥٩
٢٠ - الشورى / ٣٨
٢١ - تفسير الميزان؛ الطباطبائي، ج٤، ص ٢٩
٢٢ - نهج البلاغة؛ الحكمة رقم ١٦١
٢٣ - أصول الكافي؛ الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣٠٧ - ٣٠٩
٢٤ - آل عمران / ١٣٤
٢٥ - الشورى / ٣٧
٢٦ - البقرة / ٢٨٠
٢٧ - البقرة / ١٧٨
٢٨ - البقرة / ٢٨٠
٢٩ - النحل / ١٢٦
٣٠ - تفسير الرازي - فخر الرازي - ج ٩ - ص ٦ - ٨
٣١ - محمد / ٧
٣٢ - التوبة / ١٠٥